

جذور الصحافة السورية وبواكيرها

محمود الوهب⁽¹⁾

أولاً: الهدف من البحث

يخوض هذا البحث في أوضاع التي استدعت نمو بذور الصحافة السورية في أماكن ظهورها الرئيسية في نهاية القرن التاسع عشر، ويحاول تسليط الضوء على بداياتها الأولى، ومعاناة روادها في أجواء لم تكن معها الحرية قادرة على فرش التربة الملائمة لها، ويكشف البحث عن ماهية التجارب الأولى، وتطلع روادها نحو آفاق سورية تأخذ بعوامل النهوض والارتقاء من خلال ما يبذله أبنائها الذين يتخذون من الفكر والثقافة عمومًا نهجًا ووسيلةً لبلوغ دولة حديثة تكفل لمواطنيها حقوقًا متساوية، وتسهم في ارتقاء بلادهم. ويدقق البحث في العوامل المعوقة، وفي تصميم هؤلاء على النجاح وتحقيق الغاية، ويؤكد البحث أهمية دور الصحافة في وعي الحياة السياسية والثقافية، إذ الصحافة وسيلة ناجعة للحفر في جدر بدت آنذاك راسخة، لكنها سرعان ما تهالكت أمام حركة الحياة، وعزيمة ذوي الأرواح الوطنية والعقول المتفتحة.

ويفرد البحث إلى جانب القامات الثقافية الكبرى مجالاً أوسع للصحافي الشاب المنور الحلبي عبد الرحمن الكواكبي الرجل الأكثر استنارة وشجاعة في قول كلمته المؤكدة لاستقلال سلطة الصحافة، ودورها الفاعل في بناء الدولة الحديثة المتصرفة بالحرية والعدالة الاجتماعية الخالية من الفساد والارتزاق. ولا يخفى إسهامها في تفتيح العقول على عالم الإنسان وثقافته وأدابه، وتوعيته بحقوقه العامة، وبالقيم الإنسانية المشتركة. ويبرز البحث في النهاية تأكيد صحة نضال أوائل السوريين عبر الكلمة الحرة المفعمة بمحبة الوطن والإنسان.

ثانياً: مقدمة عامة

كان التطلع إلى الحرية سمة عامة تطبع ولايات الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر، ومنها الولايات السورية، وكانت الصحافة حلماً يلح على طلائع تفتحت عقولها باكتساب العلم والمعرفة، فرأت في الصحافة وسيلة للتعبير عن طلب الحرية، فالصحافة معيار لمستوى وجود الحرية كما يراها حسين عبد القادر: ((إذا لم يكن الناس أحراراً في الفكر والتعبير عن آرائهم فليس ثمة ديمقراطية، حتى في ظل النظام الديمقراطي يفقد الناس حريتهم إذا لم يمارسوها))⁽²⁾، ويتابع فيقول: ((فإذا لم يمارس الناس بوجه عام حق المناقشة الحرة فإنهم يبددون حق التصويت ويفسدون جوهر الديمقراطية))⁽³⁾، فالصحافة صورة تعكس تجليات الحرية والتزوع

(1) كاتب وصحافي وقاص سوري.

(2) حسين عبد القادر، الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة، ط1، (الجزيرة: وكالة الصحافة العربية، 2020)، ص12.

(3) حسين عبد القادر، الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة، ص12.

نحو الاستقلال الفردي والوطني.

أخذت الصحافة السورية تجبو وتتعثّر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في إطار سلطة الاستبداد، وقد رافق بداياتها ظهور قوانين تقيّد حريتها درجة تفرّغها من محتواها، وإلغائها عندما تقضي إرادة السلاطين والولاة وأدواتهم، إضافة إلى مواقف رجال الدين الراضية أصلاً استخدام المطبعة والصحافة معاً. لكن بذور الصحافة مضت تخط طريقها بإرادة رؤاها التي لم تلتن، على الرغم من تشدد القوانين المنظمة لها، فقد تقضي أحياناً بإغلاق الصحيفة، ومصادرة لوازمها، فضلاً عن الرقيب المسمى (المكتوبي) الذي يضع نفسه فوق القوانين على الرغم من جهله بأبسط مفردات اللغة.

ومن هنا كان الصحفيون الأوائل يحفرون الصخور بأظافرهم في انتقادهم الشكل القديم للدولة، وتبشيرهم بقيم الحرية والعدالة، وجاءت كتاباتهم تلبية لحاجة يتلمسها الشباب العربي الذي أدرك أهمية إصلاح ما يمكن إصلاحه متأثرين بما شاهدوه أو سمعوه عن أثر الحرية في تقدم المجتمعات الأوروبية، وهكذا رغبوا في مناهضة الاستبداد وتأثيره في تخلف البلاد والعباد، فكان مجال الثقافة والأدب عبر الصحافة سبيلاً إلى نشاطهم مع نهايات الدولة التي كانت تنوس بين ترسيخ ما هو قائم، والتطلع نحو التغيير والتجديد.

ثالثاً: موجز عن بدايات الصحافة السورية

لم تر بواكير الصحف السورية النور إلا خلال انعطاف تاريخي نمت معه أدوات صناعة الصحافة ووسائلها، وغدت في متناول الكل، يقول المؤرخ الفرنسي إميل بوفان:

((فما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى كان التطور الاقتصادي قد أحدث انقلاباً عنيقاً في الوسائل الفنية للصحافة (الإخراج، الطباعة، الصور، الألوان، رخص ثمن الورق، قلة تكاليف الطباعة، إدخال البخار ثم الكهرباء للآلات التي تستخدم في صناعة الصحف ما جعل الصحف في متناول كل يد)).⁽⁴⁾

أخذت بواكير الصحافة السورية تظهر في المدن السورية على يد بعض الدول الأوروبية وأميركا، لكنها عانيت بأخبار دولها ومجتمعاتها وبعثاتها. أما الصحافة السورية التي سنمضي مع روادها الأوائل، وهم ينهضون بها في الأستانة وبيروت ودمشق وحلب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد أذنت بعهد جديد من الحرية والثقافة التي تنطوي على الأدب والعلوم وعموم المعارف، وكان لها دور مهم في تخليص اللغة العربية من شوائب لحقتها، وقد حققوا ما طمحوا إليه مقدمين أثماناً باهظة. وقد نشأ بعض تلك الصحف في الأستانة ثم انتقلت هذه الصحف إلى المدن السورية الكبرى؛ بيروت ودمشق وحلب.

(4) إميل بوفان، تاريخ الصحافة، محمد إسماعيل (مترجمًا)، محمود نجيب أبو الليل (مراجعا)، (القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ناشرون)، ص 12.

1. أهم الصحف السورية

أ. مرآة الأحوال

صدرت في عهد السلطان عبد المجيد، حين أخذت الصحافة السورية بالتطور والتنوع والانتشار لدى تسرب بعض الأفكار من الغرب إلى الإمبراطورية العثمانية، آنذاك كان الشاب الحلبي رزق الله حسون عام 1855 في الأستانة، وبالمصادفة قامت حرب القرم، فوجدها مناسبة لإصدار جريدته (مرآة الأحوال) أول جريدة عربية تصدر في الأستانة، ولمع اسم منشئها من خلال تغطيته أخبار تلك الحرب، يقول عنه فيليب طرازي: ((أما أول رجل عربي الأصل أصدر باسمه صحيفة عربية، واستحق دون سواه هذه المكرمة الجليلة، فهو رزق الله حسون الحلبي منشئ (مرآة الأحوال) ولأجل ذلك يمكننا بكل صواب أن نسميه: إمام النهضة الصحافية عندنا بلا مرء، بل جد الصحفيين وزعيمهم على الإطلاق)).⁽⁵⁾

ب. صحيفة السلطنة

بعد إصدار السلطان عبد المجيد (1839 - 1886) منشور (الكولخانة) في 26 شعبان 1255 هـ/ آب/ أغسطس 1839م الذي يقضي بتحديث قانون الضرائب، وتحديد سنوات الخدمة العسكرية، وتقريره (أمنية الروح والعرض والمال)، ما يعني إحداث نوع من الحرية والانفراج، ((أسس في الأستانة إسكندر شلهوب السوري الأصل جريدة (السلطنة) باللغة العربية عام 1857 لكنه أوقفها قبل أن تكمل سنتها الأولى إذ لم يستطع الإنفاق عليها، كما لم يجد المحررين اللازمين)).⁽⁶⁾

ج. حديقة الأخبار

هي أول جريدة خرجت من إطار الأستانة إلى بلاد الشام، أنشأها خليل خوري بموجب رخصة نظامية في الأول من كانون الثاني/ يناير عام 1858، وقد جاء في مقدمة العدد الأول أنه أسماها (الفجر المنير) ثمَّ (حديقة الأخبار)، وعرفَ عنها بالكلمة الفرنسية (جورنال) التي تعني (يومي)، وحدد إصدارها مرة في الأسبوع، وقسمها إلى أربعة أقسام؛ الأول للأخبار السورية وللأجنبية المترجمة، والثاني لنبذِ فوائدها علمية، أما الثالث فخصصه لملاحظات وتجارب، وخصص القسم الأخير للتاريخ، إذ تقتطع في نهاية العام الأوراق الأخيرة من الجريدة لتكون كتاباً في التاريخ. و((كانت حديقة الأخبار المظهر الوحيد للرسائل العمومية، والأنباء المفيدة، وتنشيط الناس، على إقامة المدارس وتعميم الزراعة، وترويج الصناعة، وتحسين التربية والأخلاق والعادات، وقد حافظت في جميع أدوار حياتها على مبدأ الاستقامة والعدل وحب النفع العام)).⁽⁷⁾

(5) فيليب طرازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج1، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1913)، ص 47.

(6) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، (باريس: مطبعة أسمار، د.ت)، ص 57.

(7) فيليب طرازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج2، ص 57.

د. نفيير سورية

انبرى بطرس البستاني بعد انتهاء حرب الفتنة الطائفية عام 1860 إلى تأسيسها وإعطائها طابعاً أدبياً ذا محتوى وطني، ولا سيما في ما يكتبه، ويقصد بالوطني ترابط الطوائف المختلفة، والأديان المتعددة. ومما ورد في بعض مقالاته: ((يا أبناء الوطن إن الفظائع والمنكرات التي ارتكبتها أشقياؤنا هذه السنة كسرت القلوب، وأسالت الدموع، وعكرت صفاء الألفة، وأضاعت حق الجوار...))⁽⁸⁾، وقد أوقفها صاحبها بعد ثلاثة عشر عدداً، وكانت تصدر من صفحتين، وكأنها أدت غرضاً مرسوماً لها.

2. صحف أولى صدر بعضها خارج الأراضي الشامية

لا بد من الإشارة أولاً إلى أن كثيراً من الصحف السورية صدرت في البداية في الأستانة أو في بلدان أوروبية حيث المجال أرحب والحرية أوسع ومنها:

أ. عطارد

((صدرت هذه الصحيفة في مرسيليا / إيطاليا وأصدرها مستشرق عاش معظم حياته في بيروت يعلم اللغة العربية، وكان عضواً في الجمعية السورية، وهي صحيفة أدبية، وتُنشر أحياناً مقالات دينية صدرت عام 1858 وأغلقت بعد عام من صدورها))⁽⁹⁾.

ب. صحيفة برجيس باريس

((أصدرها عام 1858 شاب سوري الأصل من جبل لبنان هو الكونت رشيد الدحداح وتعد باكورة الصحف العربية بكم حجمها وجودة حروفها وإتقان طبعها واتساع مواضيعها...))⁽¹⁰⁾

ج. صحيفة الجوائب

أسسها أحمد فارس الشدياق اللبناني في تموز/ يوليو عام 1860، وقد انتشرت الجريدة شرقاً وغرباً ونالت شهرة واسعة، ((فكان يقرؤها سلاطين العرب وملوكهم وأمراؤهم وعلماءهم في تركيا ومصر والمغرب والجزائر وتونس، وقد ساعد السلطان عبد العزيز على توسيع نطاق هذه الجريدة ليث فكرة الخلافة الإسلامية بين المسلمين خارج الدولة العثمانية))⁽¹¹⁾؛ و((كان صاحبها يقبض كل سنة من السلطان مبلغ 500 ليرة عثمانية، وكل

(8) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 66.

(9) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 67.

(10) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 67.

(11) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 68.

من الخديوي إسماعيل ومحمد الصادق باي تونس مثل هذا المبلغ..⁽¹²⁾ و((كانت الجوائب لا تخلو من مناظرات سياسية وعلمية بين صاحبها وكبار علماء عصره ومنهم: الشيخ إبراهيم اليازجي، والكونت رشيد الدحداح، والشيخ إبراهيم الأحذب، والدكتور لويس صابونجي، والشيخ سعيد الشرتوني، والمعلم بطرس البستاني، ورزق الله حسون، ويوسف باقوس، وسواهم من الجهادة)).⁽¹³⁾

د. صحيفتا سورية ولبنان

على الرغم من أن السلطان عبد العزيز (1861 - 1876) كان ميالاً إلى الأخذ بحرية الصحافة إلا أنه وجد نفسه محرّجاً، فأصدر قانوناً للصحف في شهر آب/ أغسطس من عام 1865 عرف ب(قانون الصحافة الإسلامية)، وخلصته، كما غيره من قوانين الصحافة، لتلخص بثلاثة أمور: الإنذار، فالتعطيل، ثم اضطهاد الصحيفة والصحافيين مع العقوبات طبعاً⁽¹⁴⁾. ومع ذلك فثمة حرية صحافية نسبية.

ففي تلك الأجواء المكفهرة صدرت صحيفتان رسميتان تنقلان أخبار الدولة وشؤونها، واحدة في دمشق اسمها: (سورية)، وتُنشر باللغتين العربية والتركية أوامر السلطات العثمانية وأخبارها، لكنها تبث، على نحو أو آخر، الروح الوطنية السورية سرّاً، وهي جريدة أسبوعية، وقد صدرت بتاريخ 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1865، وأهم محرريها أديب نظمي ومحمد كرد علي، ولم يكن لها اهتمام بالأدب أو الثقافة ولا السياسة. وأما الثانية، فقد صدرت في بيت الدين ودير القمر، أنشأها حاكم جبل لبنان داود باشا باسم: (لبنان) عام 1867، وتُنشر باللغتين العربية والفرنسية، وظهرت في أربع صفحات حسنة التبويب، ولها مراسلون. وكان إلى جانب هاتين الصحيفتين نشرتان شعبيتان في بيروت هما: (النشرة الشهرية) و(الشركة الشهرية).⁽¹⁵⁾

ه. صحيفة فرات

ولعلّ الصحيفتين السابقتين حرضتا والي حلب جودت باشا ذا المكانة العلمية وهو المؤرخ التركي المعروف على إصدار صحيفة عام 1867 أطلق عليها اسم (فرات)، وخصصها لنشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة وإعلاناتها، وكانت تطبع باللسانين العربي والتركي، ثم أضيف إليهما اللسان الأرمني مدة سنة ونصف، لتعود إلى عهدنا السابق، ثم لتحتجب.

و. صحيفة دمشق

صدرت هذه الصحيفة عام 1878، وتُنشر باللغتين العربية والتركية، وصاحبها أحمد عزت باشا العابد. نشر العابد فيها فصولاً تشيد بالعرب ومفاخرهم وفضائلهم، واعتزلت بعد أربعة أشهر، لكنها عاودت الظهور

(12) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 68.

(13) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 68.

(14) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 80-81.

(15) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 81.

بعدهما أوعز أحمد مدحت باشا الذي يميل إلى التحرر بإعادة إصدارها، وحرر حينذاك قسم اللغة العربية سليم حنجوري، وكان آخر عهدها عام 1887. يذكر أن هذه الصحف نشأت وسط تيارين سياسيين، أحدهما يبغى التقدم والرفعة لبلادها وللقومية العربية، أما الثاني فكان مثبِّطاً، ويلجأ أحياناً إلى الدسائس والفتن، لكن تصميم الأول ونظراته المستقبلية القوية رسخت خطواته وإيمانه بصحة ما يقوم به، وجعله تاريخاً لبدایات نستنير بها الآن.

ز. صحيفة لسان الحال

لخليل سركيس صدرت في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1877 في بيروت، واختطت لنفسها أسلوباً معتدلاً، وكانت نصف أسبوعية، ثم صدرت ثلاث مرات في الأسبوع، ثم أربع مرات إلى أن غدت يومية في 23 أيلول/ سبتمبر 1895، وعن ذلك أخذت تصدر عددًا أسبوعيًا يتضمن خلاصة حوادث الأسبوع وأخباره المهمة، واقترحت على المتأدبين أن يضعوا إلى جانب المصطلح الأجنبي ما يوضحه باللغة العربية، وكانت ذات تبويب جيد، ففي ((الصفحة الأولى افتتاحية سياسية وعمرانية وبريد أوروبا وخلاصة أخبار صحف الكون، وفي الصفحة الثانية الأنباء البرقة والأخبار المحلية ومراسلة الجهات وفي الثالثة أسعار التجارة والقراطيس المالية، وحركة البواخر وأحوال ميزان الحرارة والمطر، وفصل من رواية تهذيبية يستطيع قراءتها كل إنسان لخلوها من كل ما يشين الآداب، أما الصفحة الرابعة فمخصصة للإعلانات)).⁽¹⁶⁾

3. نشرات وصحف دينية وجامعة

هي نشرات وصحف تتبع الكنائس عمومًا، ونشأت بدفع من الحملات التبشيرية، ومساعدتها، وتحدث باسم الطوائف التي تمثلها هذه الدولة الأوروبية أو تلك، ومنها نشرة شهرية دينية مصورة صدرت تحت اسم كوكب (الصبح المنير) لتوزيعها مجانًا على تلامذة مدارس البروتستانت، أصدرها القسوس الأميركيون في أول كانون الثاني/ يناير 1871، وتعطلت بعد مدة لأنها لم تكن قد حصلت على رخصة رسمية في وقت الإصدار⁽¹⁷⁾، ومن أهم الصحف الدينية:

أ. صحيفة البشير

أسست (صحيفة البشير) عام 1870 على أنقاض (مجلة المهماز) التي أنشأها (خليل عطية) في بيروت شباط 1870، أما البشير فقد أسسها الأب أمبروسيوس مونو رئيس الآباء اليسوعيين في سورية لخدمة الطوائف الكاثوليكية الشرقية، وقد اتخذت كلمات السيد المسيح شعارًا لها: ((تعرفون الحق والحق يحرركم)) اشتهرت (البشير) بصدق الرواية وجرأة الكلمة، وكانت تتناول المسائل الدينية وبعض الأخبار المحلية.⁽¹⁸⁾

(16) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 113.

(17) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 89.

(18) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 88.

ب. صحيفة ثمرات الفنون

هي صحيفة إسلامية متعصبة أصدرتها جمعية الفنون في 30 نيسان/ أبريل 1875، وكانما جاءت ردًا على (صحيفة البشير)، وكانت أولى الصحف الإسلامية في بيروت، وهي صحيفة مساهمة تتألف من اثني عشر سهمًا، لكن جمعية الفنون لم تستمر طويلاً، إذ طويت بوفاة مؤسسها الحاج سعد حمادة، وقد كتب في الصحيفة كثيرون من مشاهير ذلك الوقت، ومنهم الشيخ يوسف الأسير الأزهري، والشيخ إبراهيم الأحذب، وإسماعيل ذهني بيك رئيس حسابات حكومة لبنان، وآخرون. وكانت مصدر ثقة المسلمين، ولم تدخل في مجادلات مع الآخرين حتى لا تتكرر أحداث 1860، ومن الموضوعات التي كانت تثار بين الصحيفتين مسألة النخاسة التي ألغاه الأوروبيون، واستحسنها (ثمرات الفنون)، لكنها لم تخض فيها لئلا يفهم أنها راغبة في تنصير القبائل الإسلامية⁽¹⁹⁾.

وثمة نشرات في سياقات أخرى نذكر منها:

ج. الزهرة

هي نشرة أسبوعية ذات ثماني صفحات، أنشأها يوسف الشلفون في أول كانون الثاني/ يناير 1870 وتتضمن فصولاً تاريخية، وكتلاً أدبية، وفوائد علمية وأخباراً مستطرفة بقلم منشئها وبعض حملة الأقلام من السوريين. عاشت سنة كاملة لتخلفها (مجلة النجاح)⁽²⁰⁾.

د. المهماز

هي نشرة جامعة ((دينية، أدبية، تاريخية، روائية ذات ثماني صفحات بحجم صغير. ظهرت في 25 شباط/ فبراير 1870 مرتين في الشهر، أنشأها خليل عطية اللبناني))، وأغلقت بعد ستة أشهر من انطلاقتها. وقد حرر خليل عطية نشرة دينية باسم (الهدية) أنشأتها جمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسي عام 1883.⁽²¹⁾

هـ. صحف تتوالى

على الرغم من تشدد القوانين وقسوة حكم عبد الحميد الثاني إلا أن الصحف السورية اللبنانية أخذت تتوالى في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. فصدرت عام 1891 صحيفة (الأحوال) لخليل خوري، وصحيفة (لبنان) لإبراهيم الأسود، و(الروضة) لخليل طنوس باخوس عام 1892، والأخيرتان سياسيتان، ثم صحيفة (النصير) في بلدة الحدث عام 1901 و(الأرز) عام 1893، و(المهذب) في زحلة عام 1807، وثمة صحف خطية منها: صحيفة (لباب الألباب) في كفتين عام 1883 و(الجعبة) في درعون عام 1892 و(المدارس) في برمانا عام 1906. وكثير من هذه الصحف لم يستمر طويلاً. وفي طرابلس صدرت صحيفة (طرابلس) عام 1893 لمحمد خليل البحيري، وفي

(19) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 94-95.

(20) فيليب طرّازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج 2، ص 8.

(21) فيليب طرّازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج 2، ص 9.

دمشق صدرت صحيفة (الشام) عام 1896 لمصطفى واصف أفندي.⁽²²⁾

4. المجالات السورية

أ. مجلة مجموع فوائد

صدرت في بيروت باللغة العربية عام 1851 على أيدي المرسلين الأميركيين، وصدرت باللغة العربية وبالتقويمين الشمسي والقمرى، وكانت الغاية من إصدارها نشر العلوم الدينية لما لها من منافذ على السياسة، لكنها نشرت -إضافة إلى ما هو مقرر- علومًا تاريخية وجغرافية وعلومًا أخرى، ودامت نحو خمس سنوات، ثم توقفت بعد أن بلغ عدد صفحاتها 144 صفحة. ((وهي باكورة كل المجالات التي ظهرت باللسان العربي وأقدمها عهدًا على الإطلاق)).⁽²³⁾

ب. مجلة مجموع العلوم

صدرت عن (أعمال الجمعية السورية) عام 1852، وأنشأها الشيخ ناصيف اليازجي، وتعد ثاني مجلة في البلاد الشامية، وغايتها نشر العلوم والفنون بين الشاميين على نحو خاص، ونطقت المجلة باسم جمعية العلوم والفنون التي سعى إليها ناصيف اليازجي، وكانت قد أسست عام 1847، وكان إلى جانب ناصيف اليازجي عدد من الأميركيين قسوسًا ومبشرين. وكان يحررها بطرس البستاني، ويوقع باسم ناصيف اليازجي، ودامت أيضًا نحو خمس سنوات هن عمر الجمعية السورية.⁽²⁴⁾

ج. مجلة الجنان

هي مجلة سياسية علمية أدبية تاريخية أصدرها المعلم بطرس البستاني في مطلع كانون الثاني/ يناير عام 1870 وكان شعارها (حب الوطن من الإيمان)، ففي هذا الشعار بذور الوطنية والانفصال عن الدولة العثمانية، واكتسبت المجلة شعبية ورواجًا محبة بمنشئها بطرس البستاني الذي يتمتع بإمكانات لغوية وأدبية جعلت له شعبية واسعة، وكان يكتب فيها ابنه سليم البستاني.

د. الجنة والجنينة

أشرف عليهما سليم البستاني إلى جانب مجلة أبيه، فصدرت الجنة في 11 حزيران/ يونيو عام 1870، والجنينة

(22) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 190-191.

(23) فيليب طرّازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج 1، ص 53.

(24) فيليب طرّازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج 1، ص 49.

خلال عام 1871، وقد اهتمت الأخيرة بتحبيب الثقافة إلى الناس، وكانت تصدر أربعة أيام في الأسبوع، بينما تصدر الجنة كل أسبوعين مرة.

هـ. مجلة النجاح

وهي سياسية علمية تجارية نصف أسبوعية ظهرت في 9 كانون الثاني / يناير 1871 لصاحبها القس لويس صابونجي السرياني ويوسف الشلفون اللذين أصدرها على صحيفة كل منهما، وهي صحيفة (النحلة) للقس لويس صابونجي، واستمرت مدة عام وكانت منوعة، تاريخية وثقافية وأدبية، وبعيدة عن الدين والسياسة.

و. مجلة المقتطف

صاحبها يعقوب صروف وفارس نمر، صدرت في أول حزيران/ يونيو عام 1876، واستمرت حتى عام 1952، وكانت تصدر في مطلع كل شهر، وتُنشر موضوعات علمية وصناعية وزراعية، فكانت تقرأ في أسواق الدنيا، وأطلق عليها القراء لقب (شيخ المجلات السورية)، فكانت واسطة لنشر المعارف وتاريخاً للمكتشفات العلمية والصناعية، وسبباً لنقل علوم أهل الغرب إلى الشرق، ولاقت ترحيباً كبيراً، ونالت شهرة واسعة. و((فضلاً عن المقالات التي يكتبها صاحبها العلامتان، فإن المجلة كانت مشحونة بفصول كثيرة لأفضال حملة الأقلام في الشرق من جهابذة اللغة والشعر والتاريخ والصحافة والأدباء والعلماء والأطباء والصيدلة. كما كانت المقتطف ميداناً تتبارى فيه أقلام الكتاب من كل البلدان العربية. فكانت حقا من أعظم وأهم المشاريع الثقافية في مضمار التنوير العربي)).⁽²⁵⁾

ز. مجلة الطبيب

مجلة علمية متخصصة في مجال الطب، أنشأها الدكتور جورج بوست أستاذ الطب والنبات في الكلية الأميركية في بيروت، في أول كانون الثاني/ يناير عام 1878، وغرضها نشر كل ما يهم مهنتي الطب والصيدلة وممارستها، فكانت مباحثها تتناول علم الكيمياء والنبات والحيوان والجماد والتشريح والمواد الطبية والطب الشرعي والأعمال المستشفوية (الخاصة بالمستشفيات)، تناوب على تحريرها بدءاً من السنة الرابعة كل من الدكتورة شاهين مكاريوس، ووليم فان ديك، ونقولا نمر، والصيدلي مراد بارودي، وغيرهم في ما بعد.⁽²⁶⁾

ح. مجلة المشكاة

أصدرها خليل سركيس صاحب جريدة (لسان الحال) في أول نيسان/ أبريل عام 1878 بعد أن أوقفت الدولة جريدته، ولم تدم سوى أربعة أشهر، هي فترة تعطل الجريدة، واحتوت المشكاة على ست عشرة صفحة. وهي مجلة شهرية سياسية علمية صناعية تجارية تاريخية فكاهية.⁽²⁷⁾

(25) دم، " النهضة القومية-الثقافية العربية (كتاب)", موقع المعرفة، (2005).

(26) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج2، ص57.

(27) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج2، ص60.

وثمة مجلات أخرى منها: (الصفاء) لعلي ناصر الدين عام 1894 و(الجامعة) لأمين الخوري، و1898 مجلة (المشرق) للأب لويس شيخو.. وصدرت مجلة (الشذور) لعبد المسيح الأنطاكي في ولاية حلب عام 1897 وفي ولاية دمشق صدرت ثلاث مجلات هي: (مرآة الشرق) لسليم وحنا حنحوري عام 1886 ومجلة (الشمس) لجورج متى وجورج سمعان عام 1900 و(المقتبس) لمحمد كرد علي عام 1906⁽²⁸⁾.

5. مجلات خارج السياق

رجوم وغساق لفارس الشدياق

على الرغم من أن هؤلاء المنورين قد أضأوا شعلة للحرية، وكانت بينهم مناظرات علمية لها علاقة بالأفق الذي يتطلعون إليه؛ إلا أن الحال عموماً لا يمكن أن تخلو من تناقضات وتباينات، قد تخرج عن سياقها العام أحياناً، لكنها طبيعة الحياة، وأخطاء أفراد بعضهم بحق بعض، ومن ذلك ما جرى بين (فارس الشدياق) و(رزق الله حسّون) إذا أصدر الأخير مجلة باسم (رجوم وغساق لفارس الشدياق)، وهي: ((جدلية صغيرة صدرت عام 1868 في لندن لمنشئها رزق الله حسّون الحلبي مؤسس جريدة مرآة الأحوال في الأستانة، غرضها الرد على أحمد فارس الشدياق، صاحب جريدة الجوائب لإطالة لسانه وتحريك قلمه بالسفاهة في حق رزق الله، فاشتد الجدل به(هذا المقدار) حتى انتقلت المناظرة بينهما إلى المشاتمة والمهاترة، وكانت كتابات كليهما، وردود الواحد والآخر مشحونة بالهجو المر، والطعن الموجه، ولذلك يسوؤنا أن نسطر أخباراً كهذه على صفحات التاريخ عن رجلين كبيرين يفتخر اللسان العربي بأثارهما الصحفية، وقد احتجبت هذه المجلة بعد صدور عدديها الأولين))⁽²⁹⁾.

6. مجلات للمرأة السورية

لم يكن يسمح للمرأة بالكتابة أو بالتعلم، فكيف لها أن تنشئ صحافة خاصة بها، لكن الحيلة تتوافر حين تلح الحاجة. ينقل شمس الدين الرفاعي عن مجلة المقتطف (السنة السادسة، العدد 5) أن كاتبات ذكيات نشرن مقالاتهن في صفحاتها، وجذب القراء إلى المجلة ومنهن: روجينا شكري وندى شاتبلا، ومريم مكاريوس، ومريم سركيس، وسلوى طنوس، وفريدة حبيقة، وسارة خير الله، وشمس شحادة، وياقوت صروف، وأنيسة حبيقة، وجوليا طعمة، وفريدة عطية، وجميلة كفروش، ومريم ليان وغيرهن. إذ لم يكن مسموحاً لهن أن يعبرن عن أفكار نسائية، فكانت توقع المقالات تحت اسم ترجمات من الصحف الأجنبية.⁽³⁰⁾

بيد أن الكاتبة الحلبية مريانا المراه التي نشرت أول مقالة لها في مجلة (الجنان) عام 1870، ورفضت أن تذيّل مقالاتها كلياً إلا باسمها الصريح، استطاعت أن تأخذ رخصة عام 1893 بطباعة ديوان شعر عنوانه: (بنات

(28) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص192.

(29) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج1، ص77-78.

(30) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص198.

فكر) وربما شفع لها تهنئتها السلطانَ عبد الحميد في واحدة من مناسبات جلوسه على العرش. وقد وصف الأديب السوري قسطنطين الحمصلي مريانا مرآش قائلاً: ((إنها سليلة بيت علم، وشعلة ذكاء وفهم، فصيحة الخطاب، ألمعية الجواب، تسي ذوي النبي بالطافها، ويكاد يعصر الظرف من أعطافها، تحن إلى الألحان والطرب حينها إلى الفضل والأدب، وكانت رخيمة الصوت، عليممة بالأنغام، تضرب على القانون فتنتطقه إنطقها الأقلام))⁽³¹⁾، ووصف صالونها قائلاً ((كان منزلها في حلب مثابة الفضلاء وملتقى الطرفاء والنهء وعشاق الأدب))⁽³²⁾.

وتشير (إلهام كلاب البساط) في حوار معها أجراه (هنري زغيب) بمناسبة يوم المرأة العالمي إلى أن الصحافة اللبنانية النسائية تالتت في الظهور أواخر القرن التاسع عشر، فأصدرت لويزا خبالين مجلة (الفردوس) عام 1896، وألكسندرا الخوري (أنيس الجليس) عام 1898، وأستير أزهرى (العائلة) عام 1899، ومريم سعيد (الهوانم) و(الزهرة) عام 1902، وزوزي أنطون (السيدات والبنات)⁽³³⁾.

مجلة العروس السورية

تعدُّ العروس لمنشئتها ماري عجيبي⁽³⁴⁾ من أهم المجلات النسائية، وأولها في سورية. كانت ماري ذات وعي وثقافة ورسالة اجتماعية، وتربوية، وإنسانية. صدرت العروس عام 1910، وكتبت ماري في افتتاحية عددها الأول: ((إلى الذين يؤمنون أن في نفس المرأة قوة تميّت جرائم الفساد، وأن في يدها سلاحاً يمزق غياهب الاستبداد، وأن في فمها عزاء يخفض وطأة الشفاء البشري، إلى الذين لهم الغيرة والحمية، إلى الذين يمدون أيديهم لإنقاذ بنات جنسهم من مهاوي هذا الوسط المشوه بالأوهام أقدم مجلتي)). وكتب في هذه المجلة كبار الكتاب السوريين والعرب ومن بينهم: عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وجبران خليل جبران، والياس أبو شبكة، وفارس الخوري، ومعروف الرصافي، وآخرون.. وقسمت مجلتها إلى أقسام عدة: أدبية، وتاريخية، وفكاهات، وشؤون المنزل، وتمريض الأطفال.. ومن موضوعات العدد الأول: (المستشفى في البيت، طعم المساء، خطرات أدبية). وتطرق إلى موضوعات لم سبقها أحد إليها فدعت: ((إلى دعم الاقتصاد المحلي وتشجيعه، والاعتماد على المنتوجات المحليّة، ولها موقفٌ جريء لم يكن معتاداً ممّن ينتمون إلى المدينة في ذلك الوقت، تجلّى في دعم العامل والفلاح))⁽³⁵⁾.

(31) جينا مسعود، "محطات في نضال رائدات الحراك النسوي السوري"، موقع ولها وجوه أخرى، (15.08.2018).

(32) جينا مسعود، "محطات في نضال رائدات الحراك النسوي السوري"، موقع ولها وجوه أخرى، (15.08.2018).

(33) جاندرك أبي ياغي وريما سليم ضومط، "لبنانيات رائدات في الصحافة"، مجلة الدفاع الوطني، ع 334، (نيسان، 2013).

(34) ماري عجيبي (1888-1965) مولودة في دمشق، تنحدر من أسرة حموية الأصل، رحل جدها يوسف من دمشق إلى بلاد العجم بتجارة له فقيل له: (العجيبي). تلقت تعليمها في المدرستين الإيرلندية والروسية، كتبت قبل إصدار العروس في صحف عدة مقالات تربوية واجتماعية، أسست مع المناضلة السورية نازك العابد النادي النسائي الأدبي، ثم جمعية نور الفيحاء، ومدرسة بنات الشهداء، انتخبت عضواً في الرابطة الأدبية التي أسسها خليل مردم بيك، وكانت المرأة الوحيدة فيها، ((إصلاح البلاد لا يتم ما لم يوجد التوازن بين الجنسين في العلم والمعرفة، ليتعاونوا معاً في الوصول إلى مركزهم العلمي، إن صرخة النساء في طلب المساواة طبيعية لا مناص منها، وبرهاني على ذلك يقتضي الرجوع إلى التاريخ؛ فإن قلبتم صفحاته ترون الأمومة أقدم عهداً من الأبوة)). امتدح قلمها وشخصيتها كثيرون فقد ميزها فارس الخوري عن مي زيادة إذ قال: ((ماري عجيبي هي مي وزيادة)). وقال أمين نخلة في أسلوبها: ((لا أعرف في الأقلام النسوية قلماً كالذي تحمله ماري عجيبي، فهو شديد شدة أقلام الرجال، لطيف لطف أقلام النساء في أن معاً، ولعمرك هيات أن يجتمع النساء والرجال على شمة واحدة اجتماعهم في أدب ماري عجيبي)). توفيت في دمشق. 25 كانون الأول 1965. للمزيد انظر: فوز الفارس، "ماري عجيبي.. رائدة نهضة النساء في سوريا ومنتقدة الهضة النسوية المزعومة في زمنها"، موقع تلفزيون سوريا، (9 كانون الأول/ ديسمبر، 2021).

أقيم لماري عجيبي على مدرج جامعة دمشق حفل تأبين في نيسان/ أبريل 1966، تحدث فيه فؤاد الشايب، رنيف خوري، جان كميد، وداد سكاكيني، كاظم داغستاني، عفيفة صعب، أمين نخلة، جعدون محاسب. للمزيد: فريق موقع أيقونات، "ماري عجيبي.. مؤسسة أول مجلة نسائية سورية"، موقع أيقونات، (كانون الأول/ ديسمبر، 2021).

(35) فوز الفارس، "ماري عجيبي.. رائدة نهضة النساء في سوريا ومنتقدة الهضة النسوية المزعومة في زمنها".

7. توجهات الصحافة السورية وموضوعاتها

يتبين من خلال الاطلاع على بواكير الصحافة السورية أنها كانت ذات فكر سياسي غير مباشر إلى جانب دورها الثقافي التنويري، وتعزيز دور اللغة العربية وآدابها، وتخليصها مما لحق بها من شوائب شوّهت روحها، وتنطوي منشوراتها الأدبية على هدف الحرية وإدانة الاستبداد، وتأكيد الاعتزاز بالروح القومية العربية، ويمكن تلخيص توجهاتها بما يأتي:

((أولاً: منح الاستقلال لسورية متحدة مع جبل لبنان..

ثانياً: الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد..

ثالثاً: إلغاء الرقابة وأية قيود تحول دون حرية الرأي وانتشار العلم.

رابعاً: عدم تجنيد السوريين إلا ضمن حدود بلادهم)).⁽³⁶⁾

8. قوانين لتنظيم الصحافة وتجاهلها

ثمة منشوران مهذا لتوسيع دور الصحافة هما: منشور (كولخانة) (أشير إليه لدى الحديث عن صحيفة السلطنة)، وقد أصدره السلطان عبد المجيد في 26 شعبان 1255 آب/ أغسطس 1839 وأمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأملاكهم، ثم أتبعه في حزيران/ يونيو عام 1856 بإصدار منشور الخط الهمايوني الذي عامل (أبناء الدولة جميعهم معاملة متساوية)، وكلاهما صدر تحت ضغط أمرين:

أ. ضغط الدول الأوروبية ومطالبتها بإصلاح أحوال المسيحيين التابعين للدولة العثمانية.

ب. اقتناع رجال الدولة المستيرين عن طريق الصحافة العامة، العثمانية منها والشامية بضرورة إصلاح أجهزة الدولة وتجديدها على أساس اقتباس النظم الأوروبية من غير مساس بالأحكام الشرعية.⁽³⁷⁾

ولأن هذه التنظيمات لم تمس الصحافة على الرغم من تكاثرها في المناطق الشامية فقد أصدر السلطان عبد المجيد في ذكرى جلوسه على العرش في 20 جمادى الأولى 1273 / 6 كانون الثاني/ يناير 1857 ((لائحة تعد الأولى من نوعها في تاريخ الصحافة العثمانية والبلاد العربية تنظم المطابع بقوانين قد تكون في مفهومها رادعة حتى لا تكون هذه المطابع وسيلة لاضطرابات جديدة)).⁽³⁸⁾

وتنص هذه اللائحة على بنود تتضمن خضوع من يمتن الطباعة إلى رخصة من مجلسي الثقافة العامة ووزارة البوليس. ورخصة ثانية من مجلس الثقافة لكل مطبوع مهما كان شكله ونوعه. وتتضمن اللائحة عقوبات تصل

(36) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 129.

(37) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 54، (نقلًا عن: ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية).

(38) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 58.

إلى 50 مجيداً ذهبياً، وإغلاق الصحيفة كلياً أو لزمناً، وتعد من الجرائم الصحافية كل من ينشر (أخباراً ضارة في البلد أو الدولة) وكل من يطبع صحفًا أو كتبًا أو أي مطبوعة أخرى ضارة بمصالح الإمبراطورية العثمانية أو أنها موجهة ضد الساهرين والواقفين على أمر السلطة العامة أو ضد أي أمة خاضعة للسلطان العثماني⁽³⁹⁾، وبموجب ذلك كانت الصحف تغلق، وتصادر المطبعة.

أما السلطان عبد العزيز 1861 - 1876 فقد ((كان ميالاً للأخذ بحرية الصحافة إلا أنه وجد نفسه في مأزق حرج بعد كل ما حدث فأصدر قانون الصحافة في 2 شعبان 1281/ آب/ أغسطس 1865))⁽⁴⁰⁾ ولما وجد الأمر لا يجدي نفعاً لجأ إلى الأسلوب الاستبدادي، وهو الإنذار ثم التعطيل ثم اضطهاد الصحف غير المرغوب فيها، واستمر هذا النهج حتى العام 1914 وبدء الحرب العالمية الأولى.⁽⁴¹⁾

ومع ذلك فإن ثمة 34 مادة في القانون المذكور تضيّق على الصحافة ومنها ما يجرم الصحافي ويفرض عليه عقوبات إذا ما نال من هيبة الدولة العثمانية ومن ذلك: ((فإن جريمة العيب في الحاكم، وأفراد عائلته الإمبراطورية، والتهم على سلطة الحاكم (مادة 15) أو العيب في وزراء السلطان أو في شخص رؤساء الحكومات الموالية، والتابعين للباب العالي (مادة 16) والعيب في شخص حكام ورؤساء الحكومات الصديقة والحليفة للباب العالي (مادة 17) والتشهير بالسفراء والوزراء المفوضين والمبعوثين والقائمين بالأعمال، وبالأشخاص الآخرين المعتمدين لدى الباب العالي (مادة 21) فإنه يعاقب صاحبها بمقتضى المادة (27) وتشمل العقوبات غرامات مالية أو إيقاف الجريدة لمدد محددة أو إيقافها كلياً ومصادرة أدواتها)).⁽⁴²⁾

9. بداية التضييق على حرية الصحافة

((عندما شعر السلطان والولاة بضغط الطبقات المتنورة في الولايات الشامية ومن خلال الصحف العربية في القسطنطينية، قام علي باشا رئيس وزراء السلطان عبد الحميد الثاني عام 1867 بإصدار وثيقة رسمية مهمة تمس الحقوق المكتسبة مؤرخة في 12 مايو 1867 وتعلن بأن الباب العالي من الآن فصاعداً يحتفظ لنفسه، وفق ما تطلبه المصلحة العامة، أن يتصرف بطريق إداري ومستقل عن سلطة القانون تصرفاً يجريه على الصحافة المتداولة التي تفرض المبادئ التي يجب أن تستوحىها كشرط جوهرى لصحافة وطنية))⁽⁴³⁾.

أعلن السلطان عبد الحميد الثاني في خطاب العرش الأول آذار/ مارس 1877، وكذلك في الخطاب الثاني في العام نفسه، ولدى افتتاح البرلمان أعطى وعوداً وأدلى بتصريحات عن حريات وحقوق واسعة يمنحها إلى الولايات العثمانية يصفها صاحب كتاب تاريخ الصحافة السورية بالأفلاطونية وكان قد ((أنعم على رعاياه في

(39) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 60.

(40) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 74.

(41) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 74.

(42) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 75-76-77-78.

(43) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 111-114-115-116.

الدستور الصادر في تشرين الثاني / نوفمبر من عام 1876))⁽⁴⁴⁾ لكنه عاد وانقلب على ذلك كله، ولا سيما ما يمس الولايات السورية، ومنع كل صحيفة تحاول أن تتغى بالدستور وتنتشر بعض مواده، أو تنشر عن عمد أو جهل ما يتنافى مع إرادة السلطان بالذات وفي النهاية عمد إلى حلّ البرلمان تحت زعم أنه مخالف للشريعة الإسلامية. ثم مجلس المبعوثان ونفى الصدر الأعظم مدحت باشا وكثيرين من النواب والصحافيين، وحكم عليهم بالإعدام، ومنهم الصحافي السوري خليل غانم عضو مجلس المبعوثان الذي هرب إلى فرنسا وأنشأ هناك صحيفة (البصير) التي منعت من دخول الأراضي العثمانية.⁽⁴⁵⁾

10. قانون عام 1312هـ/ 1894 م

جاء هذا القانون، في وقت بلغ الاستبداد درجاته القصوى بعد اكتشاف مؤامرة لقلب نظام الحكم، ليزيد في التضييق على الصحافة بدءاً من الحصول على الرخصة إلى إذن التوزيع إلى رقيب لا يعرف اللغة العربية، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ومن دون الدخول في التفاصيل، فالإذن يتطلب البحث في مسيرة صاحبه ومدى ولائه للسلطان، ولا بد من توقيعه على تعهد بعدم نشر أي من الممنوعات أو الحرمات المذكورة في الأنظمة السابقة، وتخضع المطبعة إلى مراقبة دائمة من دون إنذار أو سبب مسبقين، ولا يجوز أن يكون لبناء المطبعة منفذ غير الأبواب الرئيسية، وتراقب حتى إعلانات المسرحيات، أما المادة 55 من هذا القانون ف((تحكم بالإعدام على كل من يثير ويهيج بصورة مباشرة أو غير مباشرة رعايا الإمبراطورية العثمانية لأن يتسلحوا ضد الإمبراطور...)) (السلطان العثماني).⁽⁴⁶⁾

11. إيجاز لما تضمنته قوانين تنظيم الصحافة

على الصحف أن تبدأ يوميًا بالسؤال عن صحة السلطان، ثم تبدأ بالحديث عن الزراعة والرقي التجاري والصناعي في الإمبراطورية، وعليها ألا تنشر كلمة واحدة ما لم تأخذ إذناً ومن وزارة المعارف، يستثنى من ذلك ما لا يتعارض مع الوجهة الاجتماعية، وألا تنشر مقالات طويلة تخص الموضوعات الأخلاقية أو الاجتماعية ويمنع استخدام كلمة (يتبع) أو (البقية تأتي)، ويمنع ترك فراغ وخصوصاً مكان ما يحذفه المكتوبي، ولا يجوز الاقتراب من الشخصيات الكبيرة أو المهمة بالنقد، فلا ينشر شيء عن سرقاتها أو رشواتها وحتى إذا مات أحدها ميتة غير طبيعية، فلا يشار إلى ذلك، ولا يجوز نشر أي شكوى تمس موظفي الحكومة، ويمنع ذكر رفع الشكوى إلى جلاله السلطان، ولا يجوز نشر أخبار عن ثورات داخل السلطنة أو خارجها، ولا يجوز التعرض إلى أي هزيمة يمتنى بها جيش السلطان، ولا الإشارة إلى نصر أو تعظيم لأي من الأعداء، ويمنع ذكر أسمائهم. ولا يأخذ المكتوبي مفهوم الكلام في سياقه العام بل في شكل مفرداته أينما وقعت، وعلى ذلك فقد منع استخدام قائمة كبيرة من الكلمات ومنها: الأحزاب، المحاولة أو التربص، الفوضى، الاشتراكية، الديناميت، الانفجار، الفتنة، فهذه المفردات كلها

(44) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 111-114-115-116.

(45) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 111-114-115-116.

(46) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 167-168-169-170.

توحي بالثورة، ولا يجوز استخدام كلمات مثل: الخلع أو الجنون أو مراد الخامس لأنها تشير إلى خلع السلطان أو عزله، والكلام ممنوع عن الدستور، الحرية، الوطن، المساواة، لأنها تثير الشعب ضد السلطان. ولا يجوز أيضًا الحديث عن الأنف الكبير، فأنف السلطان عبد الحميد كبير، ولا الحديث عن النجوم، فذلك يشير إلى قصر بلدز الذي يسكنه السلطان. ذلك كله تحت طائلة التعطيل الكلي للصحيفة.⁽⁴⁷⁾

وعلى ذلك فقد غادر كثير من الصحف والمجلات إلى القاهرة التي كانت تتمتع بحرية أوسع، ولا يقف الأمر عند المنع، بل إن الجواسيس كانوا ينتشرون بكثرة إلى درجة أن الأجواء غدت مسمومة، وبخاصة بين أعوم 1884 و1886، و((كانوا يندسون في الشوارع والبيادين في المقاهي والملاهي، وفي التراموايات والمتنزهات، ويتجولون بالشوارع المحيطة بالمدراس العالية وبقصور الأمراء، وبيوت بعض الرجال)).⁽⁴⁸⁾

12. غرائب المكتوبيجي⁽⁴⁹⁾

هو كتاب للصحافي السوري/ اللبناني (سليم سرريس) صاحب جريدة (لسان الحال) الذي تعرض، أكثر من غيره، لمضايقات موظف الرقابة الذي يعينه الوالي لإجازة طباعة الصحف قبل الطباعة، والمكتوبيجي في الأصل هو سكرتير الوالي، وربما كلف بهذه الوظيفة، فأخذ اللقب، ولعلنا من خلال التعرف إلى الكيفية التي يمارس من خلالها، المكتوبيجي مهنته ندرك شدة القوانين المقيدة لحرية الصحافة لدى أغلب السلاطين حتى أولئك الذين آمنوا، إلى هذا الحد أو ذاك، بحرية الصحافة، ومنهم عبد المجيد وعبد العزيز اللذان كانا يتراجعان عما أقرّاه بحرية نسبية.. ومما جاء في مقدمة غرائب المكتوبيجي:

((إن مكتوبيجي ولاية بيروت اليوم هو سعادتلو عبد لله أفندي نجيب، ليس وحده المقصود في هذا الكتاب، وإنما استعملت اسم المكتوبيجي لأنه أصبح من الأوضاع العصرية لمراقب الجرائد، مع أن المكتوبيجي، في حقيقة معناه وطبيعته الأصلية، لا علاقة له بالجرائد وإنما هو سكرتير الوالي. ولكل ولاية من الممالك العثمانية مكتوبيجي خاص، لكن الحكومة العثمانية اختارت أن تعهد إلى مكتوبيجي ولاية بيروت أمر مراقبة الجرائد، فأصبح اسم الرجل معروفًا بمراقبته للجرائد أكثر من كونه كاتم أسرار الولاية)).⁽⁵⁰⁾

وعلى الرغم من تأخر وجود الصحافة في (الدولة العلية)، وتختلف محتواها، نسبيًا، إلا أن قلم الرقيب كان كافيًا لإبطال محتوى المادة سواء بما فهمه منها أم لم يفهمه، وجاء في كلمة المؤلف:

((وسبب جميع هذه المصائب والنكبات هو وجود المراقبة على جرائد تركيا عمومًا، وجرائد سوريا خصوصًا؛ لأن الحكومة العثمانية اختارت وضع مراقبة صارمة على الجرائد فقيّدت العقول، وأرادت من ذلك أن تقتل

(47) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 145.

(48) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 153.

(49) سليم سرريس، غرائب المكتوبيجي، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي، 2021).

(50) سليم سرريس، غرائب المكتوبيجي، ص 17.

الأفهام كما تقتل الأجسام في هذه الأيام)⁽⁵¹⁾.

أما في مادة إهداء الكتاب فقد وردت كلمات جارحة صارخة، لكنها تلامس الحقيقة والواقع:

((كما أن الدول المتمدنة قد ألغت الاسترقاق والنخاسة وأعطت العبيد السود حريتهم، كذلك قدر الله العليُّ الحكيم أن أخرج من مملكتك وأن أقيم في حى حكومة مصر العادلة، فمن هذا القطر الذي أصبح سعيداً من يوم تقلص ظل نفوذك عليه أعرض لمسامعك الشاهانية ما أشكوه أنا ويشكوه سائر رصفائي في تركيا من السياسة الخرقاء التي تبعها جلالتك، وأصرح لك غير خائف ولا وجل بأنك في سياستك هذه تسوق بلادك ورعيَّتكَ إلى خراب عاجل وسقوط سريع))⁽⁵²⁾، وفي ما يلي نتف مما منعه المكتوبجي:

(30) الحركة فيها بركة

طبع يوسف أفندي حروفش كتاباً في الأمثال باللغتين الفرنسية والعربية، وورد في جملتها المثل الشهير: (الحركة فيها بركة)، فأمر بحذف المثل من الكتاب زاعماً أن لفظة (الحركة) تفيد الثورة.⁽⁵³⁾

(39) منع القصص الغرامية

كنت أنشر في (لسان الحال) بعض قصص غرامية مترجمة من اللغات الأجنبية، فصدر أمره بمنع مثل هذه القصص زاعماً أنها تعلّم الناس العشق.⁽⁵⁴⁾

(43) (رواية عائدة)

رضي والي بيروت إجابةً لطلب بعض وجهائها أن يمثل إسكندر أفندي صيقللي رواية (عائدة) ثلاث ليال تحت حماية دولته، وفي الساعة المعينة بُدئ بالتمثيل حتى وصلوا إلى الفصل الذي يظهر فيه الجيش على المسرح حاملاً اللواء وقد كتب عليه: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾. وكان المكتوبجي في المسرح فأمر للحال بتوقيف الجوقة عن التمثيل. وهكذا أنزل الستار وانصرف الناس قبل أن تنتهي الرواية لغير سبب إلا نشر الآية المذكورة على لواء الجيش في المسرح.⁽⁵⁵⁾

(51) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص 12.

(52) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، من صفحة إهداء الكتاب وهو رسالة من المؤلف إلى السلطان عبد الحميد الثاني بتوقيع المؤلف.

(53) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص 42.

(54) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص 45.

(55) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص 47.

(42) القانون في رأسه

لما أُكْتُزَ المكتوبجي من حذف المقالات ضجر عبد القادر أفندي القباني صاحب (ثمرات الفنون) وزاره ذات يوم، فقال له: نرجوك أن تعيّن لنا خطة نجري عليها في نشر مقالاتنا، وترينا القانون الذي نخضع له في تحرير جرائدنا. فنظر إليه سعادته وقال: ألا تدري أين القانون؟ فأجاب قباني أفندي سلبًا. وإذ ذاك وضع إصبعه على دماغه وقال: إن القانون هنا...! (56)

(49) مقالات النساء

نشر (لسان الحال) بعض مقالات من أقلام السيدات، فجاء المكتوبجي ذات يوم إلى الإدارة وسألني إذا كانت الكتابة المذكورة من النساء حقيقةً، فأجبتة بالإيجاب، قال: من الآن فصاعدًا لا تنشر مقالاتهن؛ لأن ذلك يفتح عقولهن أكثر من اللازم وليس من شأن المرأة أن تهتم بهذه الأمور. (57)

رابعًا: توهج الصحافة بين عامي 1908 و1918

إن كل ما كان يحصل من تضيق وعسف ناجم عن خوف من ضغط القوى الصاعدة، ومن طلائعها التي تبرز من خلال الصحافة، فما إن بدأ العقد الأول من القرن العشرين حتى أخذت الصحف الجديدة تتوالى في الظهور في بيروت وطرابلس والشام وحلب إلى أن بلغ عددها أكثر من خمس عشرة صحيفة. ففي عام 1908 أعيد العمل بالدستور، فعم الفرحة البلاد الشامية كلها، يقول فخري البارودي الشخصية السياسية الوطنية والثقافية ابن مدينة دمشق: ((وقع الانقلاب العثماني فقامت القيامة وخرج المنادون ينادون في الأسواق بإعلان الدستور والحرية والمساواة والعدالة وأقيمت الزينات وراح الناس يهتفون مع الهاتفين دون أن يفهموا شيئًا مما جرى، ووصل خبر الانقلاب العثماني في الأستانة مساء اليوم فأعلنته حكومة الولاية-ولاية سورية- في الساعة الحادية عشرة ليلاً وفي الصباح التالي خرج المنادون يوم السبت إلى الأسواق ينادون وقد أسقط في أيدي رجال الحكومة المحلية وحراروا في تعيين موقفهم من رجال المعارضة)). (58)

وأفسح في المجال لإصدار الصحف بالجملة ففي خلال أسابيع قليلة ارتفع عدد الصحف اليومية الشعبية من سبعة صحف إلى حوالي تسع وعشرين صحيفة في كل من بيروت (عشرة) ودمشق (أربع) وحلب (أربع) والقدس (تسع) و(حيفا اثنتان)، وصدرت مجلات في كل من بيروت (ثلاث مجلات) وطرابلس وحيفا ويافا مجلة واحدة في كل مدينة، وكان عدد النشرات في تزايد ملحوظ، ونتج من ذلك زيادة في عدد المطابع، بعد إلغاء القانون الصادر عام 1888. واشتهرت من بين تلك الصحف (المقتبس) في دمشق و(البرق) في بيروت و(التقدم) في حلب. (59)

(56) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص 46.

(57) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص 53.

(58) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 206.

(59) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 209.

وما ميّز صحف المرحلة الأولى أنها كانت عربية اللسان، وبعضها كان يصدر يوميًا أو مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وصار فيها موضوعات محلية وعالمية واقتصادية واجتماعية وفنية، وظهر في المرحلة الثانية من الصحافة السورية بعض الصحف الهزلية، وكانت عناوينها تدل عليها ك (الرؤاي) و(حط بالخرج) و(ضاعت الطاسة) و(أنخلي يا هلاله) و(بردا) و(السعدان)، وذلك في عام 1909 وما تلاه، والطريف في كتابات هذه الصحف الساخرة بعض ما ورد في افتتاحية أحد أعداد جريدة (حط بالخرج) التي كان شعارها (قل الخير وإلا فاسكت): ((إن عود على وزن جود وهذا رابع المستحيلات في الشام إذ إن أربعة ليس لها في شامنا وجود: الغول والعنقاء والخل الوفي، والجود.. فاتركوا الفقير يسف التراب ودعوا الصناعي بلا أواعي)).⁽⁶⁰⁾

1. صحافة الكواكي وشخصيته⁽⁶¹⁾

يعد عبد الرحمن الكواكي واحدًا من أفضل المنورين الذين ظهوروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إذ ركز في صحافته على مسألة الاستبداد، ولعل ذلك الضوء الذي أخذ يشع حين أعيد العمل بالدستور عام 1908 هو ما كان يراه عبد الرحمن الكواكي في مصارحته الاستبداد، وعبر عنه في افتتاحية العدد الرابع من جريدة الشهباء، وكأنه يحاكي مفهوم ابن خلدون عن الحضارة بل إنها نظرتة الثاقبة إلى ديالكتيك الحياة بصورة عامة:

((إن لكل دولة فرصة وهي أيام صبوتها، وصوله هي أيام شباهها، ورسوخًا هي أيام كهولتها، وانحطاطًا وهي أيام شيخوختها وما بعد ذلك غير المهالك...))⁽⁶²⁾ ويتابع: ((هنالك دولة استعملت أيام فرصتها في التأهل للانتفاع بقوتها ثم أعملت صولتها في تشييد أركان عزتها ثم تفرغت في أيام رسوخها لمعانة حفظ صحتها على وجه الحكمة طالت حياتها وعادت لها نشأتها الأولى وربما تكرر ذلك مرتين، لكن لا بد أن تكون غايته إلى الزوال ويجب عليها عندئذ ما يجب على التاجر إذا ما شاخ)).⁽⁶³⁾

(60) سمير رفعت، قرن وربع القرن على الصحافة السورية ورق كثير وحرر غزير وحرية قليلة مجلة العربي: فكر وقضايا، ع 519، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2021).

(61) ((ولد عبد الرحمن الكواكي (1849-1903) في مدينة حلب لأسرة قديمة فيها.. هاجر إليها أجداده قبل أربعة قرون، ولهم شهرة واسعة، ومقام رفيع فيها.. درس العلوم الشرعية، وأقن اللغة العربية، والتركية، وبعضًا من الفارسية، ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة)). وصفته جريدة الرأي العام البيروتية في 1912/1/11 قائلة: ((أما الكواكي فقد كان مع ذلاقة لسانه في الخطابة صاحب نظر دقيق ونير، وقد أخذ فكرة الأفغاني في عقد المؤتمر الإسلامي، فشرحها شرحًا مطولًا في كتابة الذي صدر باسم (مبجل جمعية أم القرى)) وتتابع الجريدة: ((إذا كان الأفغاني قد أظهر الميل إلى السلطان عبد الحميد بمجيئه إلى الأستانة حتى مات فيها. فإن الكواكي ظل دائمًا العدو الألد لعبد الحميد حتى ألف كتابه (طبائع الاستبداد ومضار الاستعباد) تشنيغًا على حكومته)) (فيليب طرازي، جزء 2، ص 202، في عام 2003). ويشير د. طحان إلى أنّ الكواكي اتهم بالتحريض على قتل والي حلب (جميل باشا) فأوقفته السلطات، لكنه برئ، ثم عاد والي حلب (عارف باشا) فاهمه بالاتصال بدولة أجنبية، والاتفاق معها على تسليم حلب، وبإقامة منظمة سرية تناوى الحكم، فحكم عليه بالإعدام، لكنه رفض محاكمة حلب مؤيدًا من الأهالي الذين تظاهروا احتجاجًا على احتجازه، كيف لا، وهو عندهم (أبو الضعفاء) وتعاد المحاكمة في بيروت وبيروت الكواكي)). للمزيد: محمد جمال طحان، دراسة وتحقيق الأعمال الكاملة للكواكي، (د.م: مركز دراسات الوحدة العربية، دت) ص 25-26. ثم غادر الكواكي حلب إلى مصر وتوفي فيها، واختلف الولادة والوفاة، ونرجح ما ورد في رواية الكونت فيليب دي طرازي إذ تتلاءم مع عمل الكواكي محررًا في جريدة فرات، ثم إصداره صحيفتي الشهباء واعتدال، ومع تأليف طرازي لكتابه الذي طبع عام 1913، ما يعني قربه من عصره.

(62) ماجدة حمود، عبد الرحمن الكواكي فارس النهضة والأدب، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001)، ص 105.

(63) ماجدة حمود، عبد الرحمن الكواكي فارس النهضة والأدب، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001)، ص 105 (نقلًا عن كتاب: جان داية، صحافة الكواكي، ج 1، ط 1، بيروت: مؤسسة فكر للأبحاث والنشر بيروت، 1984)، ص 146.

2. صحيفة الشهباء

((فما كاد عبد الرحمن الكواكبي يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى أصبح محرراً غير رسمي في جريدة فرات وهي الجريدة الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة في اللغتين العربية والتركية، وبعد عام أصبح محرراً رسمياً براتب شهري قدره 800 قرش، ثم راح ينشئ جريدة يحبرها بنفسه أسماها: الشهباء وكان الامتياز ل: هاشم العطار الذي ساهم في تحريرها أيضاً وهي أول جريدة عربية صدرت أسبوعية في حلب عام 1877.. ويقول عنها كامل الغزي: ((إن هذه الصحيفة كانت أول معلن أذاع بين الناس فضل هذا العبقري، وكشف لهم عما كان منطوياً عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والسياسة، ولذا اغتبطت الناس بهذه الصحيفة، وأقبلوا عليها أيما إقبال، غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء هذه البكر الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل)).⁽⁶⁴⁾

3. جان داية وصحافة الكواكبي

الباحث جان داية⁽⁶⁵⁾ هو الذي أعطى صحافة الكواكبي حقها من البحث والتمحيص متغلغلاً في فكر الكواكبي الحر.. يرى الدكتور جمال طحان أنّ ((الشهباء أول صحيفة حلبية غير رسمية أصدرها الكواكبي، وقد أصدر منها ستة عشر عدداً ثم عطلتها السلطة، فأصدر (اعتدال) التي صدر منها عشرة أعداد فقط، وكانت أعدادهما مفقودة إلى أن عثر جان داية على بعضها، وقدمها في كتاب تحت عنوان: صحافة الكواكبي)) ويتابع طحان بأن داية: ((عثر على تسعة أعداد من الشهباء وعدد واحد من اعتدال)) ويشير إلى تأكيد داية في كتابه الفصل الخامس: ((أن الخط العام لكتائبي الكواكبي كان موجوداً في صحافته وأنّ الكتائبين قد أنجزا في حلب)).⁽⁶⁶⁾

4. البحث عن الصحافة الضائعة

يقول الباحث جان داية: ((.. طرحت السؤال على حفيد صاحب الجريدة وسميّه الوزير السابق الدكتور عبد الرحمن الكواكبي، فتلقيت منه معلومة مفادها أن بعض أعداد (الشهباء) موجودة في مكتبة (هالي) الألمانية، وبالفعل، وجدت في تلك المكتبة القديمة المتواضعة تسعة أعداد بدءاً من العدد الأول. وما وجدته يكفي للإجابة عن الأسئلة السابقة، لأن الكواكبي لم يتمكن من إصدار أكثر من سبعة عشر عدداً طيلة عامين، ففي العاشر من مايو 1877 ظهر العدد الأول من (الشهباء) في حلب، وكان مؤلفاً من أربع صفحات من حجم صحف "التابلويد ك: الديلي ميور))⁽⁶⁷⁾ مثلاً. ومن أغرب ما ورد في الصفحة الأخيرة من العدد الأول والأعداد اللاحقة، اسم هاشم

(64) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 121.

(65) باحث لبناني، له مؤلفات عدة، أكثر أبحاثه تذهب إلى الأعلام الثقافية والسياسية له كتاب: صحافة الكواكبي.

(66) 57 محمد جمال طحان، الاستبداد وبدائله، ط2، (رأس الخيمة: دار نون، دت)، ص15.

(67) جان داية، "في ذكره المنوية.. الكواكبي: تجربة التصدي لأعداء الحرية"، موقع العربي تاريخ وتراث وشخصيات، ع 537، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2021).

العطار كصاحب الشهباء، وغياب اسم صاحبها ورئيس تحريرها الحقيقي، أي الكواكبي.⁽⁶⁸⁾ ويتابع داية حديثه عن الشهباء، فيقول:

حدّد الكواكبي في الافتتاحية هويّة (الشهباء) وغايتها، بقوله: ((غَبَّ الحصول على الإذن الشريف من الباب العالي بادرنا لإيجاد هذه الجريدة العربية والجريدة الأدبية الموضوعية لنشر الحوادث السياسية والوقائع المحلية، مع تحليلها أحياناً ببعض جمل سياسية وتُبدّ علمية وأدبية، وغير ذلك من الأبحاث والمقالات المفيدة لاتساع دائرة المعارف العمومية واكتساب الآداب المدنية وكشف أسرار الأمور وتنبيه أفكار الجمهور ومساعدة الدولة على انتظام حركات السياسة المحلية وصيانة الحقوق من الشطط بين أركان الهيئة الاجتماعية))⁽⁶⁹⁾.

ومن أهم أسباب إغلاق الشهباء على نحو مباشر ما كتبه في إحدى افتتاحياتها:

((.. بلغنا أن ستة أنفار من مسيحيّ عينتاب من طائفة الأرمن القديم أتوا محل استكتاب العساكر المتطوعة بقصد أن يكتبوا أنفسهم في جملة المتطوعين، فغَبَّ السؤال عن أسمائهم، طلب منهم تغييرها بأسماء إسلامية، فأبوا ذلك قائلين: إن قصدنا المحاماة عن دولتنا ووطننا، فإن كان لا سبيل لذلك إلا بتغيير أسمائنا فلا نقبل)). ويعلق الكواكبي بقوله: ((كلما ألزمتنا ظروف الأحوال بالتشبث بأسباب علاقات الودّ والاتحاد بين سائر التبعية العثمانية، تظهر هكذا حركات تقضي بضدّ ذلك لغايات بعض مأمير لا يكثرثون بلوازم الأوقات. فاللازم على أولياء الأمور أن يصدّوا هكذا مأمورين عن غاياتهم))⁽⁷⁰⁾.

وهكذا، تصدّرت العدد الثالث الصادر في كانون الأول/ ديسمبر 1877 افتتاحيةً طويلةً شرح فيها الكواكبي ظروف التعطيل، إذ قال: ((من المعلوم أن حب الوطن والغيرة على تقدمه ونجاحه فطرة غريزية في الإنسان تدعو كل فرد منه على أن يبذل شيئاً من همته ومقدرته في سبيل خدمته. ومن هذا القبيل، كنا منذ خمس سنين تشبثنا في أن نخدم وطننا العزيز، بإيجاد مطبعة، وإنشاء جريدة وطنية فيه، أملاً بأن يكون ذلك عوناً لأبناء الوطن على تقدمهم في المعارف والآداب التي كادت أن تكون أفلة الأفلاك في سماء فخارهم وتنشيطاً، بل تسهياً لهم على مراعاة حقوق شرفهم مادياً وأدبياً))⁽⁷¹⁾. وينقل شمس الدين الرفاعي عن كتاب فيليب طرازي⁽⁷²⁾ ما يتعلق بإنهاء جريدة الشهباء غير متقيد بقانون ولا حكم محكمة ما يأتي:

((ولم يكتف كامل باشا بتعطيل الجريدة للمرة الثالثة، بل أمر بالحجز على مطبعتها، ثم لم يشأ الاعتراف بحكم المحكمة الابتدائية ببراءتها كما أنه لم يعمل بتصديق المحكمة الاستئنافية على البراءة، بل استبد في تعطيلها بصورة غريبة جداً)).⁽⁷³⁾

(68) جان داية، "في ذكره المنوبة.. الكواكبي: تجربة التصدي لأعداء الحرية".

(69) جان داية، "في ذكره المنوبة.. الكواكبي: تجربة التصدي لأعداء الحرية".

(70) جان داية، "في ذكره المنوبة.. الكواكبي: تجربة التصدي لأعداء الحرية".

(71) جان داية، "في ذكره المنوبة.. الكواكبي: تجربة التصدي لأعداء الحرية".

(72) فيليب طرازي، تاريخ الصحافة السورية العربية، ج2، ص30.

(73) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص122.

5. اعتدال

بعد إغلاق صحيفة الكواكي الشهباء أصدر صحيفة أخرى باسم الاعتدال عام 1879، وكانت بامتياز (سعيد بن علي شريف)، وناطقة باللغتين العربية والتركية مناصفة تعميمًا للفائدة بين سكان ولاية حلب الذين يغلب فيهم العنصر التركي على سواه، أما خطتها وعبارتها ومباحثها، فيتضح كما في المقالة الافتتاحية: ((على أن الاعتدال هي الشهباء من كل حيثية، ومن بعد الأخذ بكامل وظائف الجرائد الأهلية من نشر حسنات الإجراءات وإعلان سيئات المأمورين وعرض احتياجات البلاد))⁽⁷⁴⁾، ويشير جان داية إلى جراءة الكواكي، فهو لم يصمت تجاه إغلاق الشهباء إذ قال في مستهل افتتاحية العدد الأول من (اعتدال) الصادر في 25 تموز/ يوليو 1879: ((ماذا يجيب حضرة الوالي إذا سئل في محكمة الإنسانية عن سبب مقاومته جهده في صدّ هذا المشروع الخيري ومعارضة القائمين به وإضرامهم ماديا وأديبا؟ هل له من جواب يدفع عنه الحكم الحقّ بأن السبب ليس إلا ما في فطرته من عداوة الحرية؟))⁽⁷⁵⁾.

من كل ما تقدم يمكن أن نعدّ صحيفتي (الشهباء) و(الاعتدال) للكواكي (من دون التقليل من أهمية صحف الآخرين وقدرات منشئها) مثالاً أولاً للصحافة الوطنية الحرة التي تلمست مساوئ الاستبداد، وأهمية التخلص منه لا في إطار ما هو مسموح به فحسب، بل تجاوزه إلى درجة أنها أوغلت صدر الوالي، وخصوصاً أنها وجدت في عصر السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان قد عطّل الحرية النسبية المعطاة قبله للصحافة.

خامساً: خاتمة البحث

لعلنا نختم هذه الجولة القصيرة والحافلة في أن معاً بالقول: لقد اطلعنا على أهمية الصحافة ودور روادها في إضاءة العقول التي أطفأ الاستبداد نورها حيناً من الزمن، وإذا كان البحث قد ركز على قسوة الاستبداد، وشدته، وقوانينه، فإنه لم يبتعد عن الحقيقة، والغاية إظهار أهمية الدورين الوطني والقومي الذي أوجع أوارهما الصحافيون بوعيمهم، وأيقظوا بفكرهم وثقافتهم روح النهضة بما قدموه لإحياء اللغة العربية، واستعادة حيوية التاريخ لتكون نهضة على أسس حضارية وحسبهم هذا.

ولم ننس أن نلفت إلى دور المرأة صحافية، وكاتبة، إذ لم تعدم الوسيلة لإيصال صوتها بوعي متقدم، وجموح رغبة في إزاحة الغبن الذي لحق بها تاريخياً. كذلك أورد البحث شواهد من أساليب أوائل الأوائل للاطلاع عليها أيضاً.

وعلى الرغم من أنّ أوطاننا تنفست نسائم الحرية بفضل ما بذله الأوائل، إلا أنها ابتليت بما يماثل ذلك الزمن، إذا ما قسناه إلى حاضرنا، وحضارة الآخرين، لكن الأمل يبقى قائماً، ما دام هناك فكر ورجال وأوطان.

(74) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية اللبنانية، ص 123.

(75) جان داية، "في ذكراه المنوية.. الكواكي: تجربة التصدي لأعداء الحرية".

المصادر والمراجع

1. عبد القادر. حسين، الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة. ط1، (الجيزة: وكالة الصحافة العربية، 2020).
2. إميل بوفان، تاريخ الصحافة، محمد إسماعيل (مترجمًا)، محمود نجيب أبو الليل (مراجعًا)، (القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ناشرون).
3. طرّازي. فيليب، تاريخ الصحافة السورية العربية، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1913).
4. الرفاعي. شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية، (باريس: مطبعة أسمار، د.ت).
5. سر كيس. سليم، غرائب المكتوبجي، (المملكة المتحدة: مؤسسة هندواوي، 2021).
6. طحان. محمد جمال، الأعمال الكاملة للكواكبي: دراسة وتحقيق، (دم: مركز دراسات الوحدة العربية، د.ت).
7. _____، الاستبداد وبدائله، ط2، (رأس الخيمة: دار نون، د.ت).
8. حمود. ماجدة، عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة والأدب، (دمشق: اتحاد الكتاب، 2001).